الفلسطينية، فهي تكاد لا تستطيع التعبير عن دعمها لها الاّ بعد الحصول على تأشيرات مرور. ليس الغرض، هنا، تأييد، او رفض، هذا الواقع، بل لحظه. وان اردنا تبيان اسبابه، شدّدنا على ثلاثة منها: اولاً، توزّع النظام العربي الى وحدات فرعية، يصعب العبور فيه من واحدة الى اخرى؛ وثانياً، كون النزاع العربي ـ الاسرائيلي قد انحسر، في الواقع، وفي الراهن من زمننا، والى حد كبير، الى مواجهة فلسطينية ـ اسرائيلية؛ امّا السبب الثالث، وربما الاهم، فهو فقدان المنطقة، برمّتها، لنزعة الاستقلالية النسبية عن النظام الدولي، وعن الطرف الاكثر تأثيراً في المنطقة، أي الولايات المتحدة الاميركية.

غير انه ينبغي علينا الاّ نتوقف عند هذه المعطيات، على الرغم من مركزيتها؛ فمن الضروري، ايضاً، الاشارة الى ان بعض الدعوات التي بقيت تلحّ، منذ قمّة عمّان، شتاء ١٩٨٧، على ردم الفجوات بين الاطراف العربية، بهدف تحقيق التضامن العربي، تثير قدراً لا بأس به من الاسئلة.

ظلّ الخطاب اليساري، لفترة طويلة، ينتقد فكرة التضامن العربي لجذرها «الرجعي». امّا وقد تبنّى الاتحاد السوفياتي نفسه الدعوة الى التضامن بين العرب، يحق لنا ان نتساءل، فعلاً، عن جدوى هذه الدعوة.

لسان حال البعض يقول ان الالحاح على هذه الدعوة لا يمكن تفسيره الاّ في ضوء متغيرات العلاقات الدولية في المنطقة، وفي ضوء اتفاق، ولمزيد من الحذر في ضوء حوار العملاقين. واذا ما كان النزاع العربي ـ الاسرائيلي هو جوهر قضية الشرق الاوسط، كقضية اقليمية تستوجب الحل في اطار الوفاق، فان الزمن السياسي العربي الراهن اضحى حاصل الطرح بين جمود الرؤية الاميركية عند حدود الوفاق، وبين حركية الانفتاح (غلاسنوست) السوفياتية الطموحة. بمعنى آخر، انه حاصل الطرح بين آخر ما آل اليه زخم اتفاقيتي كامب ديفيد في الايام الاخيرة من عهد رونالد ريغان، كما سلّمها لخلفه جورج بوش، وبين اللقاء السوفياتي ـ العربي (دول الطوق بالتخصيص)، والاوروبي، على اعتبار المؤتمر الدولي أنسب الاطر لوضع حل نهائي وعادل يضمن مصالح جميع الاطراف في المنطقة، بما فيها الطرف الفلسطيني.

غير ان المؤتمر الدولي، الذي يكثر الحديث حوله، هو ان موسكو تريد دخوله كـ «شريك مضارب» في الشرق الاوسط، لأنها ترى الولايات المتحدة تسرح في هذه البقعة الحسّاسة من الجغرافيا السياسية الدولية، وتتصرف، دون ان يكون لها موطىء قدم. واذا ما كانت زيارة الرئيس المصري الراحل، انور السادات، لاسرائيل، العام ١٩٧٧، ثم اتفاقيتا كامب ديفيد، قد ثبطت عزائم السوفيات الذين كانوا يمارسون، فيما مضى، دبلوماسية بطيئة وحذرة، فان الشأن يبدو، اليوم، على نقيض الماضي تماماً، حيث تقف واشنطن متفرجة، فيما تأخذ موسكو مبادرات سريعة لتثبيت اقدامها في مواقع قوة متحفزة. والفارق بين النهج السوفياتي السابق والراهن، لا تخطئه العين المجردة؛ ان الاول، في ما سبق، كان يستند الى دعم تقليدي يأتيه، أساساً، من سوريا والعراق والجزائر وليبيا واليمن الجنوبي اضافة الى م.ت.ف. بينما تقود موسكو، اليوم، في كل الاتجاهات، دينامية غايتها عقد مؤتمر دولي للسلام في المنطقة، على غرار مؤتمر جنيف، باعتبار ان هذا المسعى، وحده، هو الذي يمكّن الاتحاد السوفياتي من ان يلعب دوراً فاعلاً، بل مصيرياً وحاسماً، في سياسات المنطقة.

هذه الصورة قد تفسّر لماذا سعى السوفيات الى اقناع الدول العربية، خلال الشهور القليلة المنصرمة، بترك حرّية لواشنطن في مسألة حل النزاع العربي ـ الاسرائيلي؛ كما تفسّر لماذا سارع